الأدب والمسرح في أوروبا الغربية

فرانسوا ريجيس رباستيد

لا شيء أصعب من تقييم «تغير ثقافي» خاصة في ظرف عشرين دقيقة. ولعل محاضرا في ندوة مشابهة لهذه في أواخر القرن التاسع عشر ربما لا يفوته أن يبرهن على أن شعراء وقصاصي ورسامي أوربا الغربية قد تأثروا كلهم إما كثيراً أو قليلاً بسحر ما كانوا يسمونه الشرق، ولكن هذا المحاضر قد لا يكون نبس لا محالة ببنت شفة عن المصارف التجارية الاوروبية أو عن بعض الغزوات الاستعمارية، هذه اللذائذ المواكبة لاحلام الفن في العالم العربي.

وبالطريقة نفسها، لنتنبه اليوم، ان أمكن ذلك، الى فصل ما هو ثقافي، أي تعبير الارواح وحركة العقول والاخلاق، عن السيرورة الزمنية للفترة التاريخية اقتصاديا واجتماعيا. وان نحن لم نتوصل الى ذلك فلنبحث عن السبب. ليس في مقدرة أوروبا أن تكون بالنسبة للعالم العربي متجر العصرية لا أدري ما هي؟

لنتساءل أولا عما هو ملكنا لنا وحدنا، نحن الاوروبيين، ما لنا وعلينا البعض للبعض. لنا كبرى الاساطير الاغريقية العالمي وتلك التي تتأتى منها أو تحيد عنها. «تريستان»، «فاوست» أو «دون كيشوت» أو «الملك لير» هم شخصيات من لحم ودم يمكن لكل سكان الدنيا أن يروا فيها أنفسهم، لكننا نحن الاوروبيين لا نعرف كفاية أنهم منا نحن فقط. ان هذه الاساطير والشخصيات ليست مواضيع دراسة فحسب يجب علينا معرفتها قبل أن نوجد وباستطاعتنا نسيانها بعد نهاية امتحاناتنا. هي تسكن شعورنا بصفة نهائية. هي تكوّن الفرق بيننا وبين بقية العالم وهي بالاخص لحمة أوربا التي يجب تشييدها لاننا نبدل عن طريقها عقلياتنا القومية القديمة نحن نثري أنفسنا بتشابهاتنا العميقة ونضعها تحت الشمس. ما يجمع بين قصورنا الباروكية ومساكننا ذات الشقق الخشبية، ما يجعل العالم التحالفي وعالم البحر المتوسط يلتقيان. ما يصل في ذاكرتنا وفي مستقبلنا بين «فيفالدي» و «باخ»، بين «فارمار» و «بروست»، بين «فرانس هالس» و «غويا»، بين ما يقول «ستريندبارغ» «لبيراندالو»، ما يصنعه كيركوغارد «بدون جوان» ما يحيط به «رافال» موسيقى نظام الاثني عشر صوتا «بفيان» أو «بلابارتوك» «جوهانس برامس».

لكن هذا بحق ما نفعله؟ هل يمرّ التغير الثقافي في أوروبا اليوم بهذا التساؤل وبهذا الاثراء؟ يتفق لي أن أشك في ذلك في بعض الاحيان.

كل المؤشرات تدل على أننا ربما نعيش فترة تصعيد فقدان ذاكرة الآثار[1] كل المؤشرات تدل على اننا نبدو، مثل شخصيات «غولدوني»، كمسافرين يتحولون كل يوم نحو «مصيف» بعيد وغير قابل للتمييز أكثر. ان أوروبا تقضي وقتها في اكتشاف مواهبها ثم في دفنها، وكأنها على ما يبدو تبحث عن اللذة السنورية المنجرة عن اكتشافها من جديد ونسيانها متى بدا لها ذلك. نحن نضيء منارات ونبحر بعيدا عنها لكننا نصرح باننا سنعرف دائما أين نلمحها. نعرفها كي ننساها لكننا ننتسب لها. أن يكون لنا أسرارنا كي نسمح لانفسنا بألا نقتسمها. أنا ايطالي ولي «بافازي». أنا سويدي ولي «داغرمان» أنا دانماركي ولي «كارين بليكسن». أنا نمساوي ولي «بيترهاندكو». قد تكون القائمة طويلة. عندنا كلمات سرّنا الخفية مثلما كان لنا شعراء المقاومة. ونحن نجعل من الخفية لا علامة انتصار مقبل كما كانت في السابق بل علامة انحطاط قبلناه. ان كان هؤلاء مجهولين أو ان لم يكونوا معروفين كما كانوا في السابق فهذا في الواقع أحسن. هكذا تتكلم أدمغة الشعوب الاكثر ديمقراطية في أوروبا القديمة.

هذا لان الممارسات الثقافية منذ ظهور «الشاشة الصغيرة»

تغيرت بصفة كاملة. فقد صار باستطاعة أي شخص منذ ذلك الوقت أن يجعل أي شخص آخر يعتقد أن موسيقى «ستوكهاوسن» مضيئة تماما كموسيقى «باخ». لكن أي شخص لا يقدر، مع الاسف، أن يبين أن «الهبة الموسيقية» هي في الوقت نفسه عصية الفهم أكثر من أي أثر من آثار اليوم وأكثر جدارة باكبر عدد حتى نهاية الازمان. ان الآلات التي اخترعناها وهي آلات اتصال جديرة بالاعجاب - ولدت تكثيفا للنجاح مع تكثيف للغيابات.

ليس صحيحا أن آدابنا ومسرحنا وسينمانا مفتونة بهذا الشكل بالقصة التاريخية والمواضيع الذهنية والتحقيقات والقصص السياسية الخيالية. لكن صحيح أن العرض في الفن مثلما هو في الاقتصاد يرد على الطلب بشراهة قاسية.

ان رهان «ستاندال» منذ ١٥٠ سنة: «سيقرأني الناس بعد ٥٠ سنة» لا يمكن أن يقبله كاتب اليوم. بل لنا أن نتساءل في عصرنا الحاضر كيف يمكن لمؤلف «لوسيان لوفين» أن يقاوم تقدم الآلات وهل يقبل أن يمدنا بمفاتيح روايته وان يعلق عليها ايديولوجيا أو أن يكملها حتى يصبح أثره مسلسلا تلفزيونياً وبايجاز أن يبيعه.

ان التغير يكمن هنا قبل كل شيء، كل مبدع أشكال بالكلمات وبالصور وبالمشاهد أو بالابيات كان منذ عشرين سنة فقط أكثر وحدة مع أثره وامام ورقته من مبدعي اليوم الذين تعيد لهم يوما بعد يوم الشاشة الصغيرة صورة أحلامهم منعكسة بصورة مشوهة، وذلك بالاضافة الى ارادة المستهلكين القوية والساخرة بألا يكونوا مخدوعين.

نحن نصنع في عشر دقائق شهرة لوجوه لطيفة تحدثنا عما نتمّنى سماعه: خطوبتنا، خوفنا من الحرب حبّنا للوحدة. ونحن نعرف أن أي أحد أو تقريبا أي أحد لا يقرأ حق القراءة «كافكا» و «مونتاني» أو «موزيل».

ولذلك فالفكرة الجديدة في أوربا اليوم هي احترام الفن حتى لو أفقدنا هذا الاحترام الشهرة. ان للمخترع وعياً مطرداً بالاسلوب واللهجة والاشكال بينما تقلص وعيه بالمقاصد والنتائج. وذلك لانه يعرف التلاعب بالافكار أو قلة الاهمية التي يوليها «المستهلكون» لهذه الافكار. ان نهاية الايديولوجيات والارتيابية المطلقة والايمان الغامض بالعالم الثالث والمعادي للذرة والامل الجنوني المتعلق بالبنوك والقبول لكل محتم، رغم حماس بعض حكامنا الذي يعوّض عندنا الايمان ورغم مجهود البعض يوجهنا كل هذا ربما بصفة نهائية للبحث عن الفن كمطلق وحيد.

ان كنا بولونيين اليوم مثل «فايدا» فنحن نصنع فلما عن «دانتون» كي لا نتكلم عن بولونيا بل السينما. وان كنا فرنسيين مثل «ريني» فنحن نصنع «عمي في أمريكا» كي لا نتحدث عن علم الوراثة بل عن السينما، وان كنا انجليزيين «كسجنتشر» فلن ننجز بعد مسرحا عن «الشباب الغاضب» أو انجلترا أو ما بعد الزوال لكن عن الحوار أو حتى عن عدم الحوار، بينما يأتي الشباب والجماهير الجديدة الذين غزتهم الثقافة منذ مدة يفهمون ويشيحون عنا بوجههم.

ويقول أبناؤنا: هذه جوقاتكم ومطابعكم وقاعات عروضكم التي لا تصنعون بها شيئا غير التجارة. هذه آلات الاتصال التي نملكها في كل مكان وفي جميع الاتجاهات سهلة الحمل مطواعة جديرة بالثقة وهي التي لا نريد تشويهها، وهي حديثة الميلاد - والتي تستعملونها لتثبيت سلطة بعض الادمغة والزعماء السياسيين.

وهنا يشرع في البروز احتياج لسلطة معاكسة تملك ارادة الوجود أمام المؤسسات الكبرى داخل المجتمعات الصغرى وهو الشكل الاكثر حداثة للتغير الثقافي. وأذكر هنا بدون نظام الاذاعات والتلفزات المحلية واللغات الجهوية ونوادي أو مكتبات الاحياء والمقاهي المسرحية وعروض الشعر وحتى - ولم لا؟ الحكايات المصورة.

في كل هذا فكر موازٍ متقدم، وتضامن هامشيّ يمثّلان بالنسبة للثقافة ما تمثله الطوائف بالنسبة للأديان، لكن بصورة أقل خطورة واكثر وضوحا.

وليس في هذا عنف بل رقة وعالم حديد شديد المتانة يجب علينا أن نحسب لها حسابا.

وهكذا يتحدد موقف نضالي، نحن لسنا حافظي تراث وليس علينا كذلك أن نخترع وجهة نظر أوروبية المركز كثيرة الخيلاء أو قليلتها تجمع أمنا بأرخص الاثمان بل علينا أن نعرف وأن نعلن بكل صفاء ذهن أن لغتنا الرومانية أو الجرمانية تحمل في الوقت نفسه عقلية الفتح والجدال، ان عبقريتنا هي، منذ الازل، العبقرية الوحيدة التي تستطيع ان تضع نفسها موضع التساؤل والوحيدة التي تستطيع ان تشير الى دروب العقل والى سبل النظام والحب أو الخير. وهكذا فان ثقافات أوروبا هي تحت تصرف العالم، لا لإخضاعه، بل لخدمته.

فرانسوا ريجيس - باستيد

سفير فرنسا في الدانمرك